جان دى لا بريير

وكتابه « الأخلاق »

جان دى لا بريير أخلاقى افرنسى رسم بقلمه عواطف الانسان . وأبدى مكنونات فؤاده . وأظهر ما تكنه جوانحه من نزعات وما تخفي عليه ضلوعه من مرام . مظهراً الفاسد منها ناقداً المعوج . محبذاً القديم . حتى اذا أراد امرؤ الأخذ بالصالح منها وجده على متناول يده

ولما كانت الاخلاق عنوان مجد الأمة اذا حسنت نمت الامة وسادت ، واذا فسدت اضمحلت وبادت ، رأينا أن نبدأ مقالاتنا الأدبية بتحليل نفسية هذا الكاتب الاخلاقى ، ونقد كتابه المسمى « الاخلاق » مدلين على مواضع الاجادة منه ، ومبدين مواطن النقص فيه وناقلين الى العربية مقتطفات منه ليدرك القارىء ولو لماماً فوائد هذا المؤلف الذى لو أتيح له مترجم الى العربية متضلع من معانيها مشبع من بيانها واقف على دقائقها ، لأدى لأمته بتعريبه خدمة لا تقوم بمال .

حياة لا بريير

ولد لا بريير فى باريس سنة ١٦٤٥ واستعز الله به سنة ١٦٩٦ أن يجرى له فى حياته حدث يثير الاهتمام . فقضى عمره فى معية البرنس دى كونويه الكبير مثقفا ابنه وملقنا إياه العلوم والمعارف ومقوما اعوجاجه . ومصلحا من التواء ميوله .

ولما كان دائم التردد على البلاط الملكى الفرنسى أبصر بعينه النقادة ظلم النظام الاجتماعى الذى جعل الناس طبقات تسمو الواحدة على الأخرى فترهقها بالمغارم وتسقيها الذل والهوان ، وتحملها أنواع الخسف والجور . ورأى محاباة الطبيعة فى توزيع الهناء فتخص به من لا يستحقه . وتمنعه عمن هو له أهل وتبدى له شقاء العامة وما تتحمله فى سبيل العيش من كدح يضنيها ، وكد يفنيها ، دون أن تصل الى ما تسد به رمقها وتدفع به عن نفسها غائلة الجوع ، فتفجرت عواطفه وجاشت ميوله وآلى على نفسه ان يعمل لأصلاح هذا الخلل فعرب كتاب الاخلاق لتيوفراست اليونانى وأردفه

بآخر من نتاج قريحته وثمار مشاهداته فكان نبراس هدى لمن يريد أن يهتدى الى قويم المبادىء وحميد الخصال

ما حمله على وضع كتابه

لقد ذهب البعض الى أن لا بريير استوحى فى تأليف كتابه مما خطه يراع تيوفراست اليونانى لا سيما وأنه صدره بترجمة كتاب هذا الاخير فى الموضوع ذاته

لكننا نرى أن ما حدا به ألى وضع مؤلفه هى حاجات العصر الذى عاش فيه وذوق أهله فقد كانت الأمثال والحكم كثيرة التداول على ألسنة القوم يتسابقون الى استظهارها ويسعون الى الاكثار منها، ففتق لروشفوكول أن ينيلهم مشتهاهم فالف فى ذلك كتابا تذوقه الجميع بشغف عظيم

وكان ما يسمونه الصور - أى تصوير العوائد وسرد الاخلاق - كثير الشيوع وقتئذ يتطلبه مقتضى العصر وتستلزمه ثقافة الوقت فبرز الى عالم الوجود سنة ١٦٥٩ كتاب مقتطفات مدموازيل، فاستنعى صيته وأقبل الناس عليه ايما إقبال

ومن أشد مظاهر الذوق فى تلك الأيام السعى الى ادراك الحقيقة الخالصة من كل شائبة فكانت الحكم والامثال غاية أهلها وتصوير العوائد ووصف الاخلاق مطلبهم يسعون الى ادراكه بكل ما أوتوا من ذلاقة لسان وفصاحة بيان وبلاغة أسلوب لانهم كانوا يرون فى الصور والحكم جلاء للحقيقة واظهاراً لماهيتها فتبدو فيهما كما هى ناصعة بيضاء دون أن يحجبها زخرف أو يخفيها طلاء، ومن غير أن يكون للخيال الروائى والشعرى أدنى دخل فى تشويه معالمها اذ ببروزها جلية واضحة دون ستر ولا سدل يقترب الفن اللغوى بقدر الامكان من التعبيرات العلمية

تعمقه الفكرى

لكل امرىء مهما سمت مكانته الادبية حسنات تذكر فتشكر وسيئات تسرد فتبتذل. لان العقل البشرى مهما أوتى من سعة الادراك ليس فى وسعه أن ينتج عملا كاملا. فالنقص صفة ملازمة لطبيعتنا البشرية فاذا ما أبدينا مواطن الضعف فى لا بريير لا نتوخى النيل من حقه وغمطه فضله ولا افقاد الكتاب قيمته. فانما

نسعى الى تحليل نفسية الكاتب وتمحيص مقدرته الفنية واظهار ما انطوى عليه من قوة أو وهن

يتألف كتاب « الاخلاق » من حكم وأمثال وصور للاخلاق والعادات. فقد حذا فيه حذو لارشفوكول، لكنه استخلص الصور والصفات واكسبها شكلها الفني وقيمتها الفلسفية وبرز فى ذلك تبريزاً لم يبزه فيه أحد. لكنه لم يسم فى الحكم سمو لارشفوكول، بل لبث من الوجهة التفكيرية العامة فى مستوى أدنى من مستوى غيره، من خاض موضوعه أو ما يشابهه. فقد فاقه باسكال بعمق أفكاره وبحثها فى صميم النفس لاظهار بواطنها وكشف غوامضها. لان لا بريير لم يكن ذا قوة تحليلية عظيمة ولا ذا مقدرة نفسية تمكنه من التغلغل فى أعماق القلب البشرى. ولم يتصف بميزة ذاتية يتهيأ له بواسطتها التسلل الى الغرائز والطباع بل جل ما امتاز به صفات ليست بفذة لكنها فوق المستوى العمومى، عصمته من كبير زلل. لكنها لم تؤهل به لعظيم اكتشاف

ولا يجب أن يؤخذ الانسان بفصله الأخير المؤلف من مجموعة آراء وأفكار وافية فلسفية مستمدة من آراء أفلاطون وباسكال وديكارت، ومحولة بابهام كلى الى معان روحية للديانة المسيحية. فهذا الباب مع ما فيه من صحة الرأى وصدق البيان، عديم الشخصية لا يقوم بنفسه ولا يمت الى المؤلف سوى بالتحوير والتبديل، اذ ما هو الا انعكاس لافكار الغير وظل لآرائهم.

وكان لا بريير نظرياً تتأثر عيناه فتخط أنامله. فكلما قربت عوامل الملاحظة من متناول اليد، وبدت للنظر المجرد ظاهرة جلية، سهل له رؤيتها وتناولها. لانها تبتعد عن الخيال الفكرى والتصور النفسى اللذين يعوزانه. فقد كان ينظر فيخط ما يدركه نظره، ويرى فيعبر عما يراه. فهو والحالة هذه أشبه برسام ينقل بريشته ما تبصره عيناه من الأشياء الحسية. لا ما تتصوره مخيلته من الامور المعنوية.

فهو شغوف بالحياة ومظاهرها. بغيض لشواذها وعميقها. يجتهد فى استخلاص عوائدها العمومية الجلية واستظهار أخلاقها البادية دون تطلع الى المستترة منها أو الناتجة عنها. فله الظواهر لا البواطن. وما يبدو لا المضمر منه. ولذا أجاد فى

تصوير انسان القرن السابع عشر الذى عاش فيه وعجز عن التعبير عن الانسان فى كل آن ومكان

فهذا النقص فى التعمق الفلسفى وطبع الفنان الذى تستهويه الاشكال وتستميله الظواهر الحية ،قد حولا حقائق كبار المؤلفين المدرسين الى حقائق تصورية أشبه بالخيال منها بأمور راهنة

الروح السائدة فى الكتاب

لقد انتقد لابرير اخلاق اهل عصره بلواذع الجمل. وقوارص الكلام . وأبدى لهم تأذيه من عوائدهم التى لم ير فيها حسنة . لانها شيدت على اسس النقائص والرذائل . وأقيمت على دعم الانانية وحب الذات.فرتب الشرف تشرى لتتخذ ذريعة لعدم دفع الضرائب . والدين صرف عن مجراه وتحولت اجتماعاته الى مناظروحفلات. والأسر تفككت عرى الصلاة بينها . واتخذ الزواج وسيلة للكسب . فضحيت الفتيات على مذبح الاعراض الذاتية والخيلاء الاجتماعية . وحجر عليهم فى الاديرة دون ارادتهن وجراً لمغنم . والعدالة عرجاء سقيمة لا ترفع ضيما . كثيرة الكلفةطويلةالمدى . والانسان بين هذه المساوىء يطلق العنان لميوله مجتنبا الحقائق متتبعاً الترهات .لائذاً بالسفاسف لايرى الحق الا فى جانب فعاله واعماله . ولا يأتى الجلائل الا بانانية تشوه محاسنها وتقلل من قيمتها . وهو يقيد ارادته (بالمودة) و يقتفى اثرها خانعا ذليلا فى كل مايأتيه سواء أكان فى عوائده أم فى طرق معيشته

وبالاجمال كان لابرير ثائراً على النظم الاجتماعية متمرداً على سير الانسانية غاضباً على العوائد حانقاً على الاخلاق . لايرى فيما حوله غير اكاذيب ومفتريات . وترهات ومنكرات فحمل على هذه النقائص وابداها للعيان بشكلها المزرى ومنظرها الممقوت . فاستغلها فلاسفة القرن الثامن عشر ،واتخذوها سلاحا لتقويض دعائم الحكم القديم الذى سمح بهذه المزريات . فكان لا برير والحالة هذه ،فيلسوفا بالمعنى الذى اطلقه فولتير وديدرو على هذه الكلمة

تبويب الكتاب

لايسعنا ونحن نبدى غث كتاب وثمينه،الأن نظهر اسفنا مما نراه فى كتابنا العصريين

ولا سيما كتاب جرائدنا، من النقص الذى يذهب بمحاسن كتاباتهم مهما سمت بلاغة وعلت موضوعاً. فجلهم ان لم يكن كلهم لا يحسنون ترتيب افكارهم وتبويب ما يخطونه، فتبدو نفثات اقلامهم مضطربة مشوشة، متداخلة بعضها ببعض. فيقرأ المرء فى آخرها ماسبق ان اطلع عليه فى أولها ويرى فى وسطها ما مر به فى مستهلها فيخرج منها مبلبل الفكر، لم يعلق فى ذهنه منها شيء.

اما اذا اعتنوا بترتيب ما يكتبون وتبويبه، قربوه من ذهن القارىء وارسخوه فى ذاكرته. فينتهى من القراءة وقد ثبت فى مخيلته ماطالعه دون ان يجهد نفسه فى حفظه أو يتعب ذاته فى استظهاره

وقد وقع لابرير فى هذا الخطأ نفسه فاهمل ترتيب كتابه وتبويبه فبدا نقصه ظاهراً جلياً، فشوه محاسنه وافقده جزءاً كبيراً من قيمته. لان الكتاب لم يكن الا مذكرات مأخوذة من الحقائق. فكان المؤلف ينقل مايراه امامه من مظاهر الانسان المتنوعة دون أن يعمل الفكر لاستخراج دفائن النفس وخوالج الفؤاد. ولما اتم مؤلفه جمع ما دونه وقسمه الى فصول كل كل واحد منها بعنوان وجعل من مجموعها كتاباً.

لانكر ان ثم بعض الترتيب فهناك مقدمة يبين فيها الابرير عقيدته الادبية، تليها ابواب الكتاب كلها وصفاً وبياناً لمختلف درجات الهيئه الاجتماعية. أولها نفثات الاقلام تليها الكفاءة الشخصية. ويأتى بعدها العالم اجمع محللا تحليلا دقيقاً بعوامله المهمة ومشاغله، فباب فى النساء. وآخر فى قلب الانسان وما يجيش فيه من العواطف المتباينة. والاهواء المتضاربة والمحادثة وماتستوجبه. ثم طبقات الاجتماع من رجال المال والاعمال الى طبقات الاشراف. وبعدئذ الدولة ووزراء المملكة والملك. وفصلان فى الانسان على وجه العموم. والحكم على الظواهر (والمودة) وتحليل بعض العادات؛ والمنبر والادعياء.

غير اننا لانجد فى الكتاب تضامناً فى أبوابه. ولا ارتباطاً بين فصوله. ولا تسلسلا فى موضوعه. ناهيك بباب « الحاكم » الموضوع فى وسطه فانه يؤلف نتوء بارزاً لايتفق مع مضمونه لمخالفته له مبنى « ومعنى ». ولا يصح ان يكون خاتمة ترتاح اليها النفس، وتسكن عندها خواطر القارىء.

ميزات لا بريير

لقد ابدينا مواطن الضعف فى لا بريير من الوجهة البسيكولوجية. واظهرنا مامنى

به من قلة التعمق الفكرى . ولابد لنا لاتمام بحثنا من ايفائه حقه بابراز مقدرته وكفاءته وما تحلى به من الصفات التى أهلته لوضع كتابه :

فلئن خفى عنه مايجيش فى النفس من عواطف ونزعات لانها مستترة فعينه النقادة لم تفتها رؤية المظاهر الخارجية المنعكسة عنها . فهنا تتجلى عبقريته التى لا يدانيه فيها احد، فقد توصل بماله من دقة الملاحظة وقوة الشعور الحسى الى تصوير الانسان الماثل امام اعيننا بحيث يتجلى لنا منه الانسان الخفى الذى لا يدركه بصرنا ولا تصل اليه انظارنا فلم تفته فى ذلك ملاحظة مهما دقت وصغرت . فقد أبدى كل شىء فيه بطريقة لطيفة رشيقة تستميل القلوب وتستهوى الافئدة ، فانتقد حديث الانسان ولهجته وحركاته وسكناته وسيره ومشيته وعوائده وطباعه وفعاله واعماله حتى ما يعترى وجهه من تقلصات عصبية وما تخطه عليه يد الزمن من غضون وثنايا .

ابدى كل هذا بوسائل حسية اكثر منها معنوية حتى انها لترسخ فى الذهن دون اجهاد فكر ولا اكداد عقل، فلم يجد عندما اراد اظهار السرور الذى يخالج قلب المحسن من البر الذى يأتيه سوى تقابل النظرين . نظر فاعل الخير ونظر المحسن اليه ، اللذين يتخاطبان دون ان يستمدا معونة الالسن ومساعدة الشفاه . فقد قال : « ما اشد غبطة المسدى معروفاً واكثر حبوره، عندما يقع نظره على نظر المسدى اليه . »

وقد اراد فى موضع آخر تصوير شناعة الاغتياب ، وابداء فظاعة هذا الفعل . لا سيما وان اكثر الناس ينهون عما يفعله غيرهم ويقعون فيما عابوه على سواهم . فلم يجد غير عجوز متبرجة واقفة أمام المرآة تزجج حاجبيها وتكحل عينيها وتحمر خديها وتضع على محياها نقط الحسن، بينما هى تعيب على مثيلاتها وعلى غيرهن هذا الصنيع

فلو عمد لا بربير الى فصاحة التعبير وسحر البيان واتى بالمعجز الموجز من الكلم أكان بوسعه ان يظهر لنا دمامة الاغتياب وقبح التعرض لاعمال الغير بصورة اكثر حياة وبشكل اشد وضوحاً واكثر تقرباً للذهن من هذا الشكل ؟

نظن بل نؤكد ان كل وصف مهما سما وعلا، يقف حاسراً كليلا امام هذا التعبير الحسى، حتى اننا عند ما قرأناه ظللنا برهة نستمتعه فى ذهننا ونستذوقه فى عقلنا، مرددين مثلنا العربى القائل : « رب اشارة ابلغ من عبارة »

لقد صور لا بريير اشخاصه بالوان تزهو كلما طال عليهما القدم حتي ان الواحد منهم ليبدو امام القارىء كأنه حي يأتي أفعاله ويقوم باعماله . وهذه ناحية من نواحي نبوغه. لاننا نقرأ كتابه فيخيل الينا ازاءما نراه من قوة التعبير ودقه النظر وبعد الملاحظة الذى يأخذ علينا مشاعرنا ويستأثر بافئدتنا ان المؤلف لم ينقل عن أشخاص مايبدو من مظاهرهم الخارجية، بل تبطن الى عواطفهم فاستخرج دفائنها . وساخ فى أعماق النفس البشرية فابدى مكنوناتها

ونرى أن نأتى بمختارات من كتابه (الاخلاق) ليلم القاري بنفثاته كما ألم بصفاته وبميزاته

قال فى باب «القلب» : الغبطة والحسد نقيضان ، لكنهما يتنازلان خصما واحدا وهو أهلية الغير واستحقاقهم الشخصى ، أو مافى أيديهم من متاع الدنيا. فالاول عاطفة اختيارية شريفة ، صادرة عن خلوص نية وصفاء طوية ، تجعل النفس فرحة خصبة بما تقدمه لها من مثال تقتدى به وتنسج على منواله ، فتسمو بها فى سماء تجعلها اعلى وارفع من الشيء الذى تغبطه

والثانى حركة عنيفة ، اشبه باقرار اجبارى باهلية وكفاءة بعيدتين عن نفس الحاسد فتذهب به الى نكران الفضيلة التى بهرته ، حتى اذا لم يجد بدآ من التمويه بها ، جردها من كل استحقاق ممسكا عنها المديح والثناء الواجبين لها

وقال فى باب « الادعياء» : ولد الانسان مياناً كذابا ، وهبطت الحقيقة من السماء بيهائها وكمالها طاهرة نقية ، فلم تتعرف به لاختلافها عنه مبدأ ومرمى فهو نزوع الى زخرف القول مهما بعد عن الحق ، وهى تواقة الى الصدق فى الجوهر مهما آذت المبادهة بصحة الواقع ، والمرء انانى بالذات لايحب إلا صنع يديه ، فهو ميال الى كل فرية ، معجب بكل كذب ، اذا حدث لفق ، واذا قص امعن فى المين ، واذا سرد واقعة حال اسرف فى الزيادة ، فحياته الاجتماعية ، وصلاته الانسانية ومعاملته المدنية رياء ونفاق ومين واختلاق

تجرى حادثة بسمعنا وبصرنا ، فيقصها اناس عديدون شاهدوها بأم عيونهم فلا يتفق اثنان فى الالمام بعرضها لا بجوهرها ، فاذا كان هذا شأننا فيما يجرى بين ظهرانينا فماذا يكون أمرنا فى الحوادث التاريخية التى جرت فى السنين الخوالى ؟ فهل نثق برواتها

وهل نعتقد بصحة كتب التاريخ التى دونها بشر مثلنا لهم نزعات مثل نزعاتنا وانانية مثل أنانيتنا ، وميل طبيعى الى الاغراق و المبالغة ، ومسخ الحقائق وتشويه ماجريات الاحوال ؟

وقال فى باب «الحاكم والجمهورية» : يجب على السياسى القدير ،الذى يعالج أمور الدولة ان يكون شديد التسلط على عواطفه ، جامحا لما يجيش فى نفسه كتوما لذات صدره لاينم ظاهره عما يخفيه باطنه، فيكون والحالة هذه كاللاعب الماهر الذى لايتجهم وجهه اذا خسر ،ولا تهش اساريره اذا كسب ،لكى لاترتسم دخائله على صفحة محياه ، فيحرز نده مايضمر فؤاده ، فيستغله لنفسه ، ويحرز الغلبة عليه

ويجب أن يكون عليما بطرق المداراة ، فيبعد نظر من يساجله عما تهم به نفسه ، مبديا عدم اكتراث بما يبغيه ويصبو اليه ، ومقبلا بكليته على مايرغب عنه ؛ كأنه لا يروم عنه بديلا ، حتى اذا انس خصمه منه ميلا الى أمر تمنع عن انالته اياه ، عارضا عليه ما طالما رنا هو اليه فى قلبه ، فيفوز بمناه على اهون سبيل

وعليه ان يتحرز جهد طاقته من الثرثرة ، التى قد تسوق صاحبها فى أكثر الاحيان الى الزلق ، فيزل لسانه بما يريد ان يضمره جنانه ، فيبوء بخيبة المنى ، وفشل الامانى

ولا نريد بذلك ان يكون عيا فيمسك عن الكلام رهبة وخشية ، بل نروم منه اذا شام فى ذاته ضعفا ، ازاء من ينازله ، ان يحجم عن الاسترسال ، ويلزم السكينة فى هيبة ووقار ، مظهرا بسكوته مقدرة على مقارعة من يساميه ، فيقن هذا بانه تجاه امرىء ، يزن كلامه ، ولا يلقيه على عواهنه . فيستشعر منه رهبة قد تحمله على التراخى فى أموره ، وعدم الاستمساك بما اتى ليناضل عنه

وأما اذا كان منازله أخرق أرعن ، حمل سكوته على محمل العي والضعف فتمتلىء جوانحه كبرا وتنتفخ اوداجه زهوا ، فيتبسط فى حديثه ، حتى اذا استفرغ ماعنده ، عرف هو مايريد معرفته من قرائن اقواله فيرد عليه بما يدحض حججه ،ويفند براهينه .

وقال فى باب « المحادثة » : اذا ضمك مجلس ،فروح المحادثة يتطلب ان لا تستأثر بالحديث مهما أوتيت من زلاقة لسان وفصاحة بيان، بل تترك الوقت لغيرك ليبدوا آراءهم ويعبروا عما فى نفوسهم.لان من يخرج من حديثك منشرح الصدر قرير العين

عما ابداه من مقدرة كلامية وكفاءة خطابية، يغادرك وفى نفسه منك مثل مابه من ذاته. لان الانسان لايحب الاعجاب بالغير قدر مايحب أن يعجب الغير به ويفضل ان يستعذب حديثه وتستذاق خفة روحه على ان يتعلم منك ويأخذ عنك. ولذا فان اللذة اللطيفة التى تسمو بالنفس، هى فى جلب السرور للغير وادخال الهناء الى قلوبهم دون ان يشعروا بمنة منان أو بفضل مسد

هذا غيض من فيض من هذا الكتاب القيم الذى لو نقل الى العربية لكان جليل الفائدة عميم النفع

ويا حبذا لو عنيت به وزارة المعارف وكلفت بترجمته كاتبا قديرا سلس العبارة رشيق الاسلوب، وقررت تدريسه فى مدارسها فانها تفيد الناشئة افادة عظيمة

مصر

نصيف جورجى نيقولاوس

اطلب من دار العصور للطبع والنشر
ومن جميع المكاتب المعروفة

تاريخ الفكر العربى

فى نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية